القدّيسون عادوا إلى الفردوس

حديثٌ سادسٌ حول القدَّاس الإلهي – الجزء الثاني

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

سأخبركم قصَّة ساعة. في العام 1977، ذهبتُ إلى الإسقيط الجديد قاصدًا الشيخ يوسف [الفاتوبيذي]. وإذْ لم أملك ساعةً، اشترى لي الشيخ ساعة منبِّهٍ تعمل بالبطاريّة (كان قد بدأ للتوّ بيع هذا النوع من الساعات. قبل ذلك، كانوا يستخدمون ساعاتٍ يُعادُ ضبطها ميكانيكيًّا). أحضر الشيخ الساعة إلى قلّايتي (كانت الساعة لا تزال في علبتها التي بيعَت فيها للمحافظة عليها)، ونبَّهني قائلًا: "إنَّ ساعة المنبِّه هذه غاليةُ الثمن، فاحرصْ على ألَّا تُخرجها من العلبة. وعندما تريد معرفة الوقت، افتح العلبة وانظر إليها، لكنْ لا تُخرجها من العلبة". فعلتُ تمامًا كما طلب منّي الشيخ، وما زلتُ أحتفظ بتلك الساعة داخل العلبة عينها. كم سنة مرَّت منذ العام 1977؟ ما زالت الساعة تعمل بشكلٍ رائع. كلّما ذهبتُ إلى مكانٍ ما في الجبل المقدَّس - سواءٌ أرِكبتُ بغلاً للصعود إلى كاتوناكيا أم صعدتُ على متن قاربٍ- كنتُ أضع الساعة في علبتها داخل حقيبتي. كنتُ بحاجةٍ إليها حتّى لا أستغرق في النوم وتفوتني خدمة الصلاة، ولكي أتمِّم واجباتي في مواعيدها. أسقطتُها آلاف المرَّات، لكنّها بقيَت سليمةً وظلَّت تعمل لأنَّها كانت في علبتها.

بصفتي شابًّا وطالبًا جامعيًّا، لم أفكّر قطّ بالاحتفاظ بساعةٍ في علبتها. كان من الطبيعيّ أن أُخرجها من العلبة وأزيل الغلاف... ولكنْ بما أنَّ الشيخ أعطاني هذه البركة، فقد نفّذتُها. كسرتُ ساعاتٍ كثيرةً في حياتي، لكنَّ ساعة الشيخ ما زالت تعمل! وأظنُّ أنَّها ستظلُّ تعمل لسنواتٍ عديدةٍ إضافيّة، مع أنَّ الزرَّ قد تآكل والعلامة التجاريَّة قد امّحَتْ نتيجة الاستخدام المتكرِّر طيلة تلك السنوات.

علَّمنا الشيوخ أن نتعامل باحترامٍ ومحبّةٍ، لا مع الناس فحسب، بل مع كلِّ شيءٍ يحيط بنا عمومًا.

يقول بعضُ أهل زماننا: "الأهمُّ أنْ نحبَّ الناس". لا أختلفُ معهم في الرأي. بالطبع، علينا أن نحبَّهم لأنَّ كلَّ شخصٍ هو صورة الله. يقول آخرون: "عليكم أن تُحبّوا لا الناس فقط، بل الحيوانات أيضًا". حسنًا، أحِبُّوا الحيوانات، ولكنْ ضمن حدود المنطق. ليس علينا أن نولَع بها، ولا داعي لأن نجلس ونتحدّث معها

ونُشاطرها مشكلاتنا – من المؤسف أنّ هذا التصرُّف الأخير قد باتَ سمةً من سمات عصرنا. حتّى إنَّه توجد مقولةٌ اليوم تقول: "إنْ لم أخبر كلابي بمشكلاتي، فمَن سأخبر؟".

يجب أن أُبديَ سلوكًا طيِّبًا وعطوفًا تجاه الناس. فَلْأسلُكْ سلوكًا مشابهًا نحو الأشياء المحيطة بي: مسقط رأسي، مدينتي، منزلي، مكتبي. فلتكن أشيائي كلُّها مرتَّبةً بقدر ما هي أيضًا مقدَّسةٌ بنعمة الله.

حتّى مُقتنيات القدِّيس تتقدَّس. عندما نزور أماكن عاش فيها قدّيسو كنيستنا وعمِلوا (مثلًا قلّاية القدّيس نكتاريوس في آيينا)، يمكننا رؤية الأشياء والأدوات التي استخدموها: قلالٍ متواضعةٌ وأكثر الأشياء بساطة، ولكنْ، يا للحبِّ المتجلِّي في كلِّ شيء! ما من أثرٍ للّامبالاة. لا يوجد غرضٌ واحدٌ مرميٌّ كيفما اتّفق.

إنَّ الله، الذي نحن على صورته، لم يخلق شيئًا من دون اكتراث، بل أضفى على كلِّ شيءٍ ترتيبًا مُذهلًا وتناغمًا وتوازنًا عجيبَين. كذلك، خُلِقَ الإنسان ليكون في علاقةٍ سليمةٍ ومنسجمةٍ مع كلِّ ما حوله. عندما لا يتمتّع الإنسان بمثل هذه العلاقة، يحدث خللٌ في نفسه، ويسود في داخله عدم التوازنِ وعدم التناغم والكراهيةُ تجاه الأشياء التي يستخدمها، تجاه منزله والمكان الذي يعيش فيه، والأشخاص المسؤولين عنه. قد لا تتّفقُ مع غيركَ حول أمرٍ ما، ولكن لا حقَّ لك في أن تكره أحدًا أو أن تكره الأشياء أو أيَّ شيءٍ من حولك، ولا يحقُّ لك، بالأخصِّ، أن تكسر أو تُحطّم شيئًا. يُعلِّمنا القدّاس الإلهيّ ذلك، ألَّا نزدري أيّ شيء.

تذكّروا القدّيس سلوان الآثوسيّ الذي راح ينوح بعد أن سحقَ ذبابةً، لأنَّه آذى خليقة الله. لم يوجد في حياته أيُّ أثرٍ للاستهتار بالأشياء التي حوله.

لا نُصلِّي في القدّاس الإلهيّ من أجل البلد والمدينة وأبنيتها فحسب، بل وأيضًا من أجل "المؤمنين الساكنين فيها" – أي من أجل سكّان هذه المدينة وهذا البلد. نُصلّي من أجل إخوتنا في الإيمان، من أجل أبناء الكنيسة المنتشرين في أصقاع الأرض كلِّها. نحن بالطبع نُصلّي من أجل العالم بأسره لأنّ كلَّ إنسانٍ هو صورة الله. إنَّ الربَّ يدعو كلَّ إنسانٍ إلى ملكوته، لكنّنا نتضرّع إليه بطريقةٍ خاصّةٍ من أجل إخوتنا في الإيمان. حيثما وجِدنا نحن المسيحيِّين الأرثوذكسيِّين في العالم، يوحِّدُنا القدّاس الإلهيّ ويسمح لنا بأن يساند واحدُنا الآخر بصلاته؛ إنَّه يوحِّدنا بنعمة الله. صلاة مسيحيٍّ واحدٍ تغطِّي حاجات مسيحيٍّ آخر ومشكلاته وبلاياه والصُّعوبات التي يواجهها.

***

بعد هذه الطلبة، يُعلن الشماس التَّالي: **"من أجل اعتدال الأهوية وخصب الأرض بالثِّمار وأوقاتٍ سلاميَّة، إلى الربِّ نطلب"**. بكلامٍ آخر، فلنسأل الربَّ رياحًا مؤاتية ومعتدلة، تلك التي لا تُضرُّ بصحّة الإنسان، ومن أجل وفرة حصاد الثمار التي تُقوّينا، ومن أجل أوقاتٍ سلاميَّةٍ لئلّا يعاني الجنس البشرّي من الكوارث الطبيعيّة التي تحلُّ بالعالم، ولا يتقلقل كوكبنا بكوارث طبيعيَّة معيَّنة.

عندما خلقَ الله العالم وكلَّ ما فيه، لم يوجد شيءٌ في طبيعة العالم المخلوق أوّلًا من شأنه أن يتمرَّد على الإنسان. لم تكن الوحوش تُهاجمه. كانت الأُسود والفهود والدِّبَبة والأفاعي مُسالمة، لا تبدي أدنى عدوانيَّة تجاه آدم أو تجاه بعضها. في ذلك الوقت، لم يكن هناك زلازل أو حرائق أو أعاصير أو أيٌّ من الكوارث الأخرى التي تضرب العالم المعاصر. كان الانسجام التامّ يسود الطبيعة. بعد سقوط الإنسان، تأصّلَ في عالم الطبيعة عدمُ الدوام والتبدُّل. فالإنسان، بابتعاده عن الله، جرَّ معه الطبيعة إلى السقوط.

إنَّ النُّسَّاك القدّيسين، بعودتهم إلى الحالة المباركة التي كان عليها آدم قبل السقوط، لا يعودون يعانون من مخاطر العالم الطبيعيّ. تُطيعهم عناصر الطبيعة ولا تُهاجمهم الحيوانات. ويمكنكم إيجاد مئات الأمثلة عنهم في سيَر القدّيسين، القدماء منهم والمعاصرين. لقد كتبَ السيّد خريستاكيس خريستوذوليذيس، الموجود معنا اليوم، كتابًا بعنوان "القدّيسون والحيوانات"، حيث يضرب أمثلةً يُبيّن فيها كيف عاش القدّيسون مع الحيوانات الضارية ولم تكنْ تؤذيهم. في نهاية المطاف، وعلى حدِّ قول القدّيس إسحق السريانيّ، تمتلك الحيوانات بعض المعرفة حول ما كان عليه آدم قبل السقوط؛ وبفضل ذلك، تستشعر القداسة في الناسك الذي بلغ حالة آدم، فلا تُزعجه. قرأتُم جميعًا سيرة القدّيس باييسيوس الآثوسيّ. كم من مرّةٍ كان عليه أن يتعامل مع الأفاعي السامّة والدِّببة... إنّ القدِّيسين يتصادقون مع الطبيعة، والطبيعة تتصادق معهم من دون أن تؤذيهم.

تعاني الطبيعة بصورةٍ لا تُفسَّر من جرّاء خطيئة الإنسان. تذكَّروا مثلًا كيف أظلمت الشمس خلال صلب المسيح وحدثت زلزلةٌ عظيمة. ليس المسيح هو مَن أظلمَ الشمس وزلزلَ الأرض؛ لم يأمرْ بأن يحدث هذا كلُّه بسبب صَلبه، بل كما تقول الطروباريّة الجميلة التي تُرتَّل يومي الجمعة والسبت العظيمَين، تألّمت الخليقة

بأسرها عندما رأت الله مُهانًا ومصلوبًا. تمرَّدت الطبيعة على هذا الإثم الذي جرى بصورةٍ تتجاوز الحدود كلّها، ولهذا أظلمت الشمس وحدثت الزلزلة.

اليوم، بات الناس بعيدين جدًّا عن الطبيعة، حتَّى إنَّهم لا يشعرون بالحاجة إلى أن يصلّوا "من أجل اعتدال الأهوية وخصب الأرض بالثمار وأوقاتٍ سلاميّة"، بل ويضحكون ويسخرون عندما يرون آخرين يصلُّون من أجل هذه الأمور. في كلّ عامٍ، عندما نرسل تعميمنا طالبين إقامة صلوات الاستمطار في رعايانا، يسخر منَّا الكثير من الصحفيّين قائلين: "لقد اطَّلع هؤلاء الكهنة على توقُّعات الطقس قبل بضعة أيّام، ورأوا أنَّها ستُمطر يوم الجمعة، فحدَّدوا موعدًا لإقامة صلاة الاستمطار في ذلك اليوم". لا ينتبهون إلى أنَّنا قد قمنا بتوزيع التعميم قبل ثلاثة أسابيع من صلاة الاستمطار، في حين أنَّ توقعات الطقس لا تصدر إلّا قبل عشرة أيّام. وماذا عن عدم توفُّر هذه التوقّعات قبلًا، وبعد أن كانت الكنيسة تُقيم صلاة الاستمطار كان المطر يبدأ بالهطول؟ شهدتُم جميعًا ذلك مرّاتٍ عدّة، كيف أنَّه خلال فترات الجفاف الطويلة، كان الطقس يتبدَّل بعد أن يقوم شعبُ الله، الكنيسة بأسرها، بالصلاة من أجل هُطول المطر.

في صلاة الاستمطار، نسأل الله أن يمنحنا ماءً للشرب، أن يرسل لنا أمطارًا صالحةً لنرتوي من الماء. سيقول بعضهم: "لدينا ماءٌ، فلِمَ نُصلّي؟". حسنًا، لدينا ماء – يمكننا شراؤه من المتجر. ولكن في صلواتنا من أجل هطول المطر، لا نتكلّم على الناس فحسب.

نصلّي أيضًا لكي يشفق الربُّ على الحيوانات التي ليس لها مكانٌ لتشرب منه، والطيور والأشجار والأعشاب: "اذكر الشعبَ الواثق بك واذكر الطيور أيضًا والبهائم وأرسِلْ ريحًا نديّةً تُزيل الجفاف. واجعلْ زرعَ الأرض صالحًا لغذاء الإنسان والحيوان (الإفشين الثالث من الخدمة التي تُقال حين احتباس المطر).

إنَّ نُصوص هذه الصلوات تجعل المرء يشعر بمسؤوليّةٍ تجاه العالم الطبيعيّ وبضرورة الصلاة من أجله. عندما أرى معاناة الأشجار بسبب غياب الرطوبة خلال فترات الجفاف الطويلة، وكيف أنَّها لا تُثمرُ ثمَّ تجفّ، فكيف يمكنني أن أبقى غير مبالٍ وأن أقول ببساطةٍ: "لا يهمُّني إن أمطرَت أم لم تُمطر" أو (وهذا يُقال أيضًا): "أُفضِّلُ ألا تُمطر حتَّى لا تتَّسخ الشُّرفة".

فقط عندما ندرك مسؤوليَّتنا، يمكننا أن نُصلِّي بصدق، وإلَّا فسنبقى غير مبالين. على سبيل المثال، عندما نريد أن نأكل حبّة طماطم، سنذهب ببساطةٍ إلى المتجر لشرائها. وإذا كنتُ لا أعلم كم يتطلّب إنتاج الطماطم من جهدٍ، سأرميها بسهولة. كذلك، عندما لا أعلم كم من الجهدِ يتطلَّب إنتاج زيت الزيتون، فلن آبه إذا سقطت قارورة زيتٍ على الأرض وانكسرت. أمّا عندما أبذل جهدًا لأجمعَ دلوَي زيتونٍ لعصرهما للحصول على قارورة زيتٍ واحدة، فسأُقدِّر ذلك الزيت حتّى آخر قطرةٍ منه، وسأحرص على ألَّا يُهدَر منه شيءٌ.

انطلاقًا من وجهة النظر هذه، فإنَّ الأزمة الاقتصاديّة الحاليّة لها جانبٌ إيجابيّ، إذ يمكنها أن تُعلِّمنا أن نحرص على أشيائنا ونُقدِّرها. يمكن لهذه الأزمة أن تُعلِّمنا أن نصلِّي إلى الله طلبًا للمطر، ومن أجل حفظ ثمار الأرض، وخصب التربة، وطقسٍ ملائم. عندما تُعلِّمنا الكنيسة أن نُصلّي من أجل هذا كلِّه، فإنَّها تُخرِجُنا من حدود الأنا، وتجعلنا أناسًا ذوي ضميرٍ كونيّ – أناسًا لا يعاملون العالم من حولهم بعداوةٍ أو لامبالاة، بل بمحبّةٍ تجاه كلِّ شيءٍ وكلِّ إنسانٍ، لأنَّه هكذا بالضبط يجب أن يكون أبناء الله.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2022). “The Saints Returned to Paradise! Sixth Talk on Divine Liturgy”, *OrthoChristian*.